من تاريخ اليمامة

الدولة الأخيضرية

للأستاذ · عبدالله بن يوسف الشبل
المدرس بالكلية

الحمدالله رب العالمين ، ونصلي ونسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن استن بسنته ودعا بدعوته إلى يوم الدين .

تجتزىء هذه المقالة من بحث بعنوان : « **ومضات من تاريخ اليمامة** » هو عبارة عن محاولة لإلقاء الضوء على جوانب معينة من تاريخ هذا الجزء من وطننا العزيز ، وخطوة أولى في طريق طويل إلى كتابة تاريخ لهذه المنطقة ، نرجو أن يتوافر له من الوقت والجهد والإمكانات العلمية والمادية ما يجعله تاريخاً يقرؤه الجميع لا فكرة في الأذهان وأمنية في الخيال .

تمهيد :

ترك انتقال الخلافة إلى خارج الجزيرة العربية آثاراً خطيرة جداً من حيث الأهمية وبعد المدى في النتائج لعل من أهمها ذلك الفراغ السياسي الهائل الذي خلفه انتقال الحكم عن الحجاز ، وما ترتب عليه من محاولات لاسترداد ما فقده من سلطة ونفوذ ، وكانت أبرز هذه المحاولات حركة (عبدالله بن الزبير – رضي الله عنهما –) التي انتهت بالفشل مما جعل أهل الحجاز – من هاشميين وغيرهم – يستكينون نتيجة للضربة العنيفة التي أجهزت على هذه الحركة ، فلما دخلت الدولة الأموية في خريف عمرها وأحس الهاشميون – من علويين وعباسيين – بضعفها بدأوا بالتخطيط لإسقاط الخلافة الأموية ، وكان بعض القادة الذين يعملون في الظل للإطاحة

بالأمويين لا يشكون في أن الخلافة ستؤول إلى العلويين لكنهم فوجئوا بتحويلها إلى العباسيين مما أوجب نقمة العلويين عليهم ، لأنهم كانوا يرون أنفسهم أحق بالخلافة من العباسيين ومن هنا فقد اعتبروهم مغتصبين للخلافة ، ونابذوهم العداء ووقفوا منهم موقف المعارضة ، وصاروا يحاولون الخروج عليهم كلما رأوا الفرصة مناسبة .

ولن نستعرض – في هذه اللمحة – جميع المحاولات التي قام بها العلويون – في الجزيرة العربية وخارجها – ولكن نكتفي بالإشارة إلى حركة (إسماعيل بن يوسف ابن إبراهيم بن عبدالله بن موسى (الجون) بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي ابن أبي طالب) عام ٢٥٢هـ في المدينة ومكة[١] ، وقيام أخيه (محمد) – المعروف بالأخيضر – بالأمر من بعده ، ثم هزيمة محمد أمام الجيش العباسي بقيادة (أبي الساج الأشروسي)[٢] وفراره إلى اليمامة وتأسيسه الدولة الأخيضرية هناك[٣] . وهذا الموضوع هو ما نحاول إلقاء الضوء على بعض جوانبه .

عوامل قيام الدولة الأخيضرية :

إضافة إلى العامل السابق – وهو اعتقاد العلويين بأحقيتهم في الخلافة ومحاولة استردادها من العباسيين – يمكن أن نضيف أن طبيعة أحداث القرن الثالث الهجري كانت من العوامل التي ساعدت على قيام هذه الدويلة ؛ كإسقاط العرب من ديوان العطاء وإقصاء العناصر العربية عن الحكم ، وارتداد بعضهم إلى الجزيرة ، وما تركته هذه المعاملة لهم من جانب الدولة من ردود فعل تمثلت لدى البعض منهم في ثورات القبائل وتمردها وقطعها الطريق . ثم إحلال الأتراك محل العرب ، وتسلط

---

(١) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي نشر دار صادر ودار بيروت عام ١٩٦٠م ٤٩٨/٢ ومحمد بن جرير الطبري : تاريخ الرسل والملوك ط٢ نشر دار المعارف بمصر ٣٤٦/٩ .

(٢) علي بن الحسين المسعودي : مروج الذهب نشر دار الأندلس – بيروت عام ١٩٧٣م ٩١/٤ .

(٣) المسعودي : المصدر السالف ٩٤/٤ ، وأبو محمد علي بن أحمد بن حزم : جمهرة أنساب العرب نشر دار المعارف بمصر عام ١٣٨٢هـ ١٩٦٢م تحقيق : عبد السلام هارون ص ٤٦ .

الأتراك على الخلفاء وما نتج عن ذلك من صراع على الخلافة وحرب أهلية وفتن داخلية شغلت الدولة عن صد الغزو الخارجي والخطر الداخلي الذي تمثل في ظاهرة التجزء في جسم الخلافة ، والذي يمثل قيام الدولة الأخيضرية أحد مظاهره .

ولعلنا في ضوء ما سبق نستطيع إجمال أهم العوامل التي ساعدت محمداً (الأخيضر) بن يوسف في تأسيس دولته :

١ ــ اعتقاد العلويين بأحقيتهم في الخلافة وفشلهم في انتزاعها من العباسيين مما جعلهم يقنعون بإقامة دويلات يكونون على رأسها .

٢ ــ إسقاط العرب من ديوان العطاء وإقصاء العنصر العربي عن الحكم مما جعله يشعر بعدة فراغات نفسية وسياسية حاول أن يعبر عن هذه المشاعر بثورات وتمرد على السلطة ، وبإقامة دويلات تعوضه شيئاً مما فقده من سلطة ومركز .

٣ ــ إهمال العباسيين لمنطقة اليمامة لانشغالهم بمشكلاتهم الداخلية والخارجية ولفقر هذه المنطقة في قيمها الروحية والمادية .

٤ ــ بعد هذه المنطقة ــ نسبياً ــ عن مركز الدولة ، وفراغها قيادياً في الفترة التي قامت فيها دولة الأخيضريين ؛ حيث لا نجد ــ فيما بين أيدينا الآن من المصادر ــ ذكراً لاسم من كان والياً على اليمامة في تلك الفترة .

تأسيس الدولة الأخيضرية :

تنسب الدولة الأخيضرية إلى (محمد ــ الأخيضر ــ بن يوسف بن إبراهيم ابن عبدالله بن موسى ــ الجون ــ بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب) . وقد استولى على اليمامة عام ٢٥٣هـ عندما فر بعد هزيمته أمام الجيش العباسي بقيادة أبي الساج واتجه إلى اليمامة وأسس دولته هناك واتخذ (الخضرمة)[1] قاعدة لحكمه .

---

(١) تقع الخضرمة في (جو) أسفل وادي الخرج في الموضع الذي تقوم فيه الآن اليمامة والسلمية والسيح .

وقد تداول بنوه حكم بلاد اليمامة ، إلا أن كتب التاريخ لا تذكر منهم سوى خمسة حكام ، كما أنها تضن علينا بأي معلومات عن هؤلاء الحكام وفترات حكمهم . والحكام الذين أوردت المصادر أسماءهم هم :

١ ــ محمد ــ الأخيضر ــ بن يوسف مؤسس الدولة وهو الذي اتخذ الخضرمة عاصمة لدولته[١] .

٢ ــ يوسف بن محمد ــ الأخيضر ــ[٢] .

٣ ــ إسماعيل بن يوسف بن محمد ــ الأخيضر ــ وقد أشركه أبوه معه في الحكم ، ثم انفرد بالحكم بعد وفاة أبية[٢] ، وكان يحكم اليمامة في عام ٣١٣هـ وعاصر أبا طاهر (سليمان بن الحسن بن بهرام الجنابي) القرمطي ويبدو أنه كان على علاقة ودية معه فإن أبا طاهر لما استولى على الكوفة وأراد العودة إلى الأحساء سلمه إمرة البلاد[٣] . بل ذهب بعض الباحثين إلى أن حصن الأخَيْضِر الذي لا تزال أطلاله باقية إلى اليوم في صحراء العراق على بعد ٢٥ ميلاً من كربلاء ربما سمي باسم إسماعيل بن يوسف عندما عهد اليه أبو طاهر بإمرة الكوفة عام ٣١٥هـ[٤].

٤ ــ الحسن بن يوسف ين محمد ــ الأخيضر ــ[٥] .

٥ ــ أحمد بن الحسن بن يوسف بن محمد ــ الأخيضر[٦] ــ .

---

(١) الهمداني : صفة جزيرة العرب ، تحقيق الأكوع نشر دار اليمامة عام ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م ص ٢٨٢ والمسعودي : مروج الذهب ٩٤/٤ وابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦ .

(٢) ابن حزم : ص ٤٦ .

(٣) المسعودي : التنبيه والإشراف ، نشر دار التراث - بيروت ص ٣٣٠-٣٣١ .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية : المجلد ٢ ص ٤٦٥ .

(٥) ابن حزم ص ٤٦ .

(٦) المصدر نفسه .

مذهبهم الديني وسياستهم الداخلية :

الأخيضريون شيعة على مذهب الزيدية ، ويقولون في ندائهم : (محمد وعلي خير البشر ، وحيّ على خير العمل)[1] .

أما سياستهم الداخلية : فكانت سيئة اتسمت بالجور وسوء السيرة كما توحي بذلك النصوص التاريخية ومن بينها :

١ - « وصادف ذلك دخول محمد بن يوسف الحسني الأخيضر اليمامة ، وانقشاع أهلها من جوره إلى مصر والمعدن في آلاف كثيرة وغلبوا على من كان بها من أهل الحجاز لسنتهم وفورهم »[2] .

٢ - « وفيها يعني سنة ٣١٠هـ انتقل أهل قرّان[3] من اليمامة إلى البصرة لحيف لحقهم من ابن الأخيضر في مقاسماتهم ... »[4] وهذا النص نقله ياقوت عن تاريخ ابن سيرين .

مدة حكم الأخيضريين :

تكاد المصادر - التي بأيدينا الآن - تجمع على أن بداية حكم الأخيضر بين لليمامة كانت عام ٢٥٣هـ عدا ابن حوقل فقد أرخ ذلك بعام ٢٣٨هـ[5] .

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامة ، ترجمة الدكتور يحيى الخشاب ط٢ - ١٩٧٠م بيروت ص ١٤٣ .

(٢) محمد بن حوقل : صورة الأرض ، نشر كرامرز ليدن ١٩٣٨م ص ٥٣ .

(٣) قران بتشديد الراء : واد كبير فيه أودية وقرى وهو المعروف - الآن - بالشعيب وقاعدته (حريملاء) ، ومن قراه القرينة المعروفة - قديماً - باسم قران ، ومن أوديته وادي وتر ويسمى - الآن - صلبوخ ، والتسمية حديثة ، ووادي وتر هذا غير وادي الوتر المعروف - الآن - بالبطحاء الذي يخترق مدينة الرياض .

(٤) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، نشر دار صادر ودار بيروت ١٩٥٦م ٣١٩/٤ .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٥٣ .

أما نهاية حكمهم ففيها خلاف كبير بين المؤرخين منشؤه أن القرامطة اجتاحوا مناطق واسعة في الجزيرة العربية فظن بعض المؤرخين أن القرامطة استولوا على اليمامة وأنهوا حكم الأخيضريين فيها وهذا ما جعل ابن الجوزي يذكر في حوادث سنة ٣٢٥هـ أن اليمامة كانت تحت حكم (أبي طاهر سليمان بن الحسن الجنابي القرمطي)[١] ، وابن خلدون حيث قال : « ولم يزل ملكها فيهم إلى أن غلب عليهم القرامطة وانقضى أمرهم والبقاء لله »[٢] . وقد تابعه في الأخذ بهذا القول القلقشندي[٣] .

ويمكن أن يجاب عن هذا الرأي بأن عبارة ابن الجوزي خرجت فخرج الغالب في أن يكون البحرين واليمامة تحت سلطة واحدة .

أما ابن خلدون فالملاحظ أن المعلومات التي دونها عن الأخيضريين قد نقلها — نصاً — عن جمهرة أنساب العرب لابن حزم ، إلا أنه اختلف عنه في تاريخ انتهاء حكم الأخيضريين ، ولم يشر إلى المصدر الذي بنى عليه رأيه في قضاء القرامطة عليهم ، ويبدو أن القلقشندي نقل عن ابن خلدون إن لم يكن نقل — أيضاً — عن ابن حزم .

على أننا نجد من النصوص التاريخية ما يثبت :

أولاً : أن اليمامة لم تدخل ضمن المناطق التي خضعت لحكم القرامطة .

ثانياً : بقاء حكم الأخيضريين لليمامة حتى بعد منتصف القرن الخامس الهجري .

ومن الأمثلة على النوع الأول :

١ — « وكان أبو سعيد قد استولى على الأحساء والقطيف وهجر والطائف وسائر بلاد البحرين »[٤] .

---

(١) ابن الجوزي : المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ط١ ١٣٥٧هـ حيدر آباد الدكن ٢٨٨/٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر نسخة مصورة في بيروت عام ١٩٧١م عن طبعة بولاق — القاهرة — ١٢٨٤هـ ٩٨/٤ .

(٣) القلقشندي : ١ — صبح الأعشى نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية — القاهرة — ٦٠/٥ ٢ — نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ط١ — القاهرة ١٩٥٩م تحقيق إبراهيم الإبياري ص ٩٠ .

(٤) ثابت بن سنان الصابي : تاريخ أخبار القرامطة تحقيق سهيل زكار : بيروت ١٩٧١م ص ٣٧ .

٢ – « ولما قتل أبو سعيد (سنة ٣٠١هـ) كان قد استولى على هجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد هجر » .[(١)]

ومن الأمثلة على النوع الثاني :

١ – « ثم ترد الخضرمة جوّ الخضارم ، مدينة وقرى وسوق فيها بنو الأخيضر بن يوسف »[(٢)] .

٢ – « وقد قدمنا فيما سلف من هذا الكتاب وفاة إسماعيل بن يوسف ... وما كان من أمر أخيه بعد وفاته وهو محمد بن يوسف مع أبي الساج وحربه إياه ، ولما انكشف من بين يدي أبي الساج سار إلى اليمامة والبحرين فغلب عليها وخلفه بها عقبه المعروف ببني الأخضر اليوم »[(٣)] .

٣ – « وبالاختصار بلغنا اليمامة ... وأمراؤها علويون منذ القديم ولم ينتزع أحد هذه الولاية منهم ؛ إذ ليس بجوارهم سلطان ، أو ملك قاهر ، وهؤلاء العلويون ذوو شوكة فلديهم ثلاثمائة أو أربعمائة فارس »[(٤)] .

٤ – « ... وولي مكانه أخوه الأخيضر محمد ، فنهض إلى اليمامة وملك أمرها . وكان له من الولد : محمد وإبراهيم ويوسف وعبدالله وهم باليمامة ودار ملكهم بها الخضْرمة ... ومنهم ولاتها اليوم »[(٥)] .

ويدل النصان الأولان على أن القرامطة لم يستولوا على اليمامة ، والنصوص الأربعة الأخيرة تثبت بقاء حكم الأخيضر يين لهذه المنطقة .

---

(١) ابن الأثير : الكامل ١٤٧/٦ .
(٢) الهمداني : صفة جزيرة العرب ص ٢٨٢ .
(٣) المسعودي : مروج الذهب ٩٤/٤ .
(٤) ناصر خسرو : سفرنامة ص ١٤١ و١٤٢ .
(٥) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤٦ و٤٧ .

وعندما نستعرض النصوص الأربعة الأخيرة نجد أن النص الأول منها للهمداني وقد توفي — على الأرجح — عام ٣٤٤هـ ، والنص الثاني للمسعودي وكانت وفاته عام ٣٤٦هـ . أما النص الثالث فهو لناصر خسرو وقد زار اليمامة ورأى دولة الأخيضريين وما هي عليه من القوة وكانت زيارته لها عام ٤٤٣هـ . والنص الأخير لابن حزم وقد عاش حتى سنة ٤٥٦هـ .

وهذه النصوص تؤيد الرأي القائل باستمرار حكم الأخيضريين لليمامة حتى بعد منتصف القرن الخامس الهجري .

ولعلنا نستطيع تعليل عدم سيطرة القرامطة على منطقة نفوذ بني الأخَيْضِر بما يأتي :

١ — أن القرامطة والأخيضريين يلتقون — معاً — في المذهب العقائدي وهو التشيع وفي الكره لآل العباس واعتبارهم معتدين على الخلافة .

٢ — أن الأخيضريين يتفقون مع القرامطة في الأهداف وهي الخروج على العباسيين وإقامة دويلات مستقلة عن خلافتهم ، ومن هنا كانت العلاقة الودية بين زعيمي الحركتين التي سبقت الإشارة إليها .

٣ — أن القرامطة لو حاربوا الأخيضريين لفتحوا على أنفسهم جبهة ثانية على حين أن الخطر مأمون من هذه الجبهة بل ربما رأى القرامطة في بقاء هذه الدويلة مصلحة لهم باعتبارها درعاً يقيها خطر العباسيين الآتي من الحجاز فيما لو فكر بنو العباس بغزوهم من طريق الحجاز .

وبعد فهذا عرض لما يمكن أن يجده الباحث من معلومات عن هذه الدويلة في ضوء المصادر الموجودة بين أيدينا الآن ، وما يزال تاريخها يعاني الكثير من الفجوات في الجانب السياسي فضلاً عن الجوانب الحضارية . وكل ما أرجوه أن أكون بهذا البحث قد أثرت من لهم اهتماماً بهذا الموضوع ليصححوا خطأً أو يضيفوا جديداً أو يربطوا حلقة .

ونسأل الله السداد في القول والعصمة من الزلل .

والحمدلله رب العالمين .